تراث سامراء

مجلة علمية محكمة نصف سنوية تعنى بدراسة
تراث سامراء المشرفة

تصدر عن

العتبة العسكرية المقدسة

مركز تراث سامراء

العدد الأول - السنة الأولى
(٢٠٢٠م - ١٤٤١هـ)

سامرّاء في كتابات الرحالة العرب والأجانب

Samarra in the Writings of Arab and Foreign Travelers

أ.د. عماد جاسم حسن الموسوي

جامعة ذي قار

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

prof . Dr. Emad jassim Hassan Almoussawi

Univesity of DhiQar

Faculty of education for Humanities

Department of History

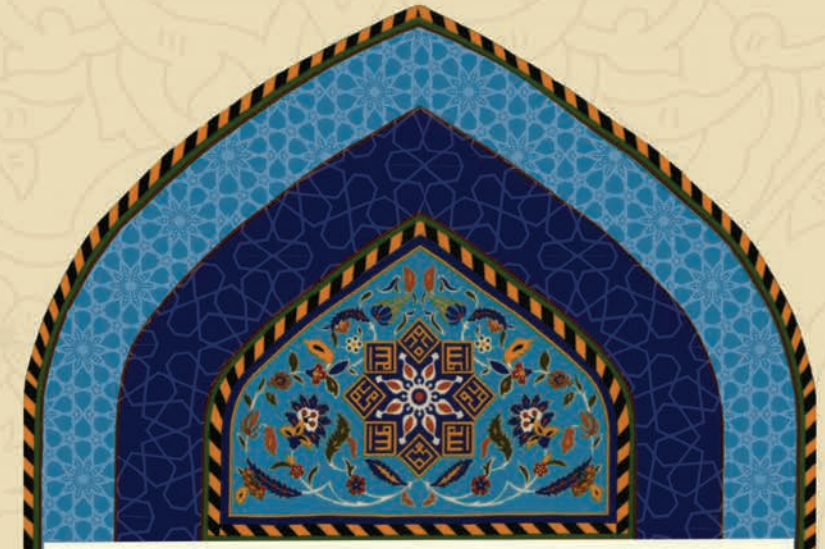

سامرّاء في كتابات الرحالة العرب والأجانب

الملخص:

للرحالة كتابات كثيرة عن مدينة سامرّاء حينما مرّوا بها؛ إذ سجّلوا توصيفاتهم ومشاهداتهم لها؛ و لهذه التوصيفات أهمية كبيرة جداً في كشف اللثام عن معالم غامضة، ونفض الغبار عن آثار قديمة لهذه المدينة التاريخية ذات الماضي العريق.

فهناك رحالة عرب زاروها كابن بطوطة و ابن جبير، وهناك رحالة أجانب زاروها أيضاً خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ومن أبرزهم فنشو (Vencho) وتافرنييه (Tavernier)، وهناك رحالة أجانب زاروها خلال القرن التاسع عشر ومن أبرزهم أبو طالب خان وكينير (Kinner) وآخرون ، وقد سرد أولئك الرحالة جميع ما يتعلق بجوانب المدينة ، وقدموا أوصافاً لما آلت إليه أوضاعها.

لذلك فمن المهم الاطلاع على توصيفاتهم التي تكشف عن بصمات سامرّاء القديمة التي تختلف عن سامرّاء اليوم، و كل ذلك يتضح بفضل أروقة هذا البحث إن شاء الله تعالى.

الكلمات المفتاحية:

رحالة عرب، رحالة أجانب، أدب، سامراء.

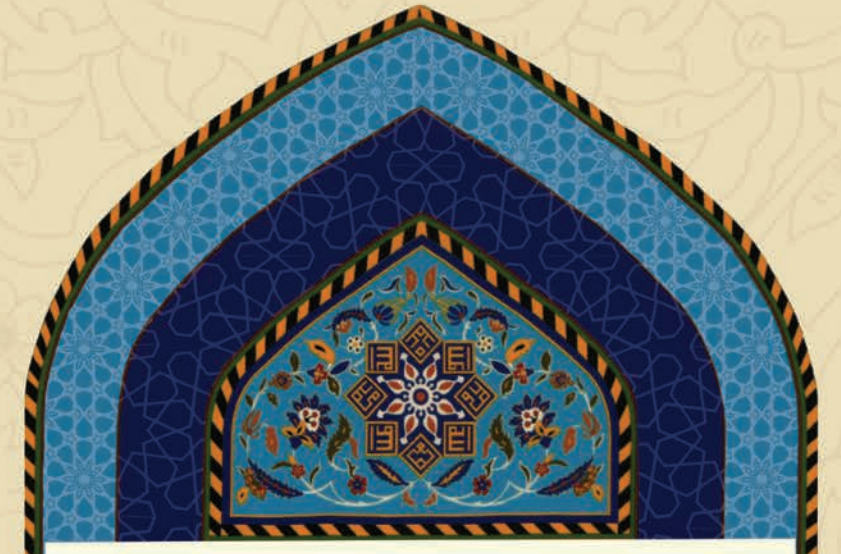

Samarra in the Writings of Arab and Foreign Travelers

Abstract:

Travelers have many writings about the city of Samarra when they passed recorded their descriptions and their insights. These descriptions are very important in uncovering mysteries and landmarks viewing the ancient archeology of this historical city which has glorious and heritable past.

There are also Arab travelers as Ibn Battuta and Ibn Jubair who visited Samarra during the seventeenth and eighteenth centuries, most notably Vencho and Tavernier. There are also foreign travelers who visited it during the 19th century, most notably Abu Talib Khan, Kinner, and others. These travelers narrated all aspects of the city and gave descriptions of its situations.

Therefore, it is important to see their descriptions that reveal the hallmarks of the old Samarra, which is different from Samarra today, and all these are clarified in this research with Allah willing.

key words:

Arab travelers, Foreign travelers, literature, Samrra.

العدد: الأول
السنة: الأولى
١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

المقدمة:

تعد مدينة سامرّاء من المدن العراقية الموغلة في القدم، والتي امتد تاريخها إلى آلاف السنين، إذ ارتبط تاريخها بالأحداث التي مرت بها المنطقة عامة والعراق بصورة خاصة مما أكسبها أهمية كبيرة فاقت العديد من المدن الأخر التي جاورتها لاسيما أنها أصبحت عاصمة الدولة العباسية خلال عصور الدولة العربية الإسلامية، كذلك احتضنت أرضها مرقد الإمامين علي الهادي والحسن العسكري عليهما السلام، فضلاً عن أنها المدينة التي ولد فيها الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف ويوجد فيها المكان الذي غاب فيه الإمام، كما تعد مدينة سامرّاء من المدن الأثرية في العراق، ومن ثَم فإن أهميتها لا تقتصر على مستوى العراق والعالم الإسلامي فحسب، بل على المستوى العالمي، الأمر الذي يستدعي المزيد من البحث والتقصي في تاريخها نتيجة لتلك الأهمية التي امتازت بها.

يسلط البحث المعنون بـ (سامرّاء في كتابات الرحالة العرب والأجانب) الضوء على ما كتبه الرحالة الذين زاروا تلك المدينة، إذ قدموا توصيفات وملاحظات من خلال مشاهداتهم لها لاسيما في تاريخها الحديث، وخصوصاً بعد أن أصبحت البلاد الشرقية ومن ضمنها مدن العراق محط أنظار العديد من الرحالة الذين توجهوا إلى تلك المناطق تدفعهم أسباب مختلفة، وكان العراق من بين أكثر الدول التي وصلها الرحالة؛ لأهميته وموقعه الستراتيجي منذ العصور القديمة.

قسم البحث إلى ثلاثة مباحث، تطرق الأول منها إلى كتابات ومشاهدات الرحالة العرب الذين زاروا تلك المدينة وما دونوه عنها، أما بالنسبة إلى المبحث الثاني فتناول مدينة سامرّاء في كتابات الرحالة الأجانب خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر وأبرزهم فنشو(vencho) وتافرنييه (tavernier) وسلط الضوء على الملاحظات والمعلومات التي ذكروها بخصوص مدينة سامرّاء من جميع الجوانب. وتطرق المبحث الثالث إلى كتابات الرحالة الأجانب خلال القرن التاسع عشر والذين تتابعوا بكثرة على زيارة تلك المدينة والكتابة عنها، ومن أبرزهم أبو طالب خان والمنشي البغدادي وريج (Rich) وكينير(Kinner) وغيرهم آخرون؛ إذ تناول أولئك الرحالة أوضاع المدينة من جميع جوانبها ومجالاتها.

المبحث الأول:

سامرّاء في كتابات الرحالة العرب

لعل من الثابت القول إن أبرز الرحالة العرب الذين زاروا العراق ووصلوا إلى مدينة سامرّاء هما ابن جبير(١١٤٥-١٢١٧م) وابن بطوطة (١٣٠٤-١٣٧٧م)؛ إذ أنهما قدما أوصافاً لما آلت إليه أوضاع تلك المدينة التي كانت قد أصبحت يوماً ما عاصمة للدولة العربية الإسلامية في العصر

العباسي، وقد تحدث الرحالة ابن جبير[١] عنها قائلاً: «بعد خروجنا من بغداد نزلنا على منطقة دجيل وأسرينا الليل كله فنزلنا مع الصباح بمقربة من قرية تعرف بالحربة من أخصب القرى وأفسحها، ورحلنا من ذلك الموقع وأسرينا الليل كله ونزلنا مع الصباح من يوم الخميس الثامن عشر لشهر صفر على شط دجلة بمقربة من حصن يعرف بالمعشوق، ويقال إنه كان متفرجاً لزبيدة ابنة عم الرشيد وزوجته، وعلى قبالة هذا الموضع في الشط الشرقي مدينة سر من رأى وهي اليوم عبرة من رأى، أين معتصمها وواثقها ومتوكلها!! مدينة كبيرة قد استولى الخراب عليها إلا بعض جهات منها هي اليوم معمورة».وأضاف ابن جبير إلى ما ذكره المسعودي[٢] عنها قائلًا: «وقد اطنب المسعودي في وصفها ووصف طيب هوائها ورائق حسنها وهي كما وصف وإن لم يبقَ إلا أثر من محاسنها والله وارث الأرض ومن عليها لا إله غيره، فأقمنا بهذا الموضع ـ يقصد سامرّاء ـ طول يومين مستريحين»[٣]، ويتضح من ذلك أن ابن جبير كان قد سمع أو قرأ عن سلوك الخلفاء العباسيين لاسيما الذين سكنوا سامرّاء واتخذوها عاصمة لحكمهم وهذا مادفعه إلى أن يطلق تلك العبارات الاستشفائية بأولئك الملوك الذين كانوا يتصورون أنهم لن يغادروا الحياة الدنيا لكنهم تركوا مايملكون، وهذه مشيئة الله سبحانه وتعالى ولم يبقَ سوى آثار تلك القصور أو المناطق التي سكنها الخلفاء العباسيون، ويفهم من عبارته وتوصيفاته أن الهدم والاندثار لم يطل مناطق أخر في سامرّاء ربما في هذا إشارة واضحة إلى مرقدي الإمامين العسكريين والمناطق المحيطة بهما، حيث أكد أن هنالك مناطق لازالت معمورة في تلك المدينة وهذا ما دعانا إلى توجيه ذلك الاحتمال. وأيضاً مما يدل على وجود تلك المناطق العامرة المزدهرة لاسيما مرقدا

(١) ابن جبير: وهو أبو الحسين محمد بن أحمد ابن جبير الكناني الأندلسي الشاطبي البلنسي، ولد في مدينة بلنسية وسمع العلوم عن أبيه في شاطبه وأخذ القرآن عن أبي الحسن بن أبي العيش، كان من علماء الأندلس في الفقه والحديث، قام برحلات ثلاث أهمها التي استغرقت ثلاث سنوات ١١٨٢ -١١٨٥، وقد وصف في هذه الرحلة كل ماشاهده من عجائب البلدان وغرائب المشاهد وبدائع المصانع والأحوال السياسية والاجتماعية والأخلاقية، وعني عناية خاصة بوصف النواحي الدينية والمساجد والمشاهد وقبور الأئمة والصحابة ومناسك الحج ومجالس الوعظ وكذلك وصف الكنائس والمعابد والقلاع والعواصف البحرية.محمد بن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، د.ت، ص٥.

(٢) المسعودي: وهو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، ولد في العراق عام ٨٩٦م، ووفاته بالقاهرة عام ٩٥٧م، وهو مؤرخ وجغرافي وله عدة مؤلفات أبرزها مروج الذهب، معادن الجوهر في تحف الأشراف، الملوك وأهل الديارات، التنبيه والإشراف وأيضاً له كتاب سر الحياة يتحدث فيه عن سوء الطبيعة والحواس والمبادئ.ينظر https://archiv.org .

(٣) رحلة ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٠٨.

مجلة سامراء للدراسات
العدد: الأول
السنة: الأولى
١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

الإمامين هو توافد الزوار، وما يؤكد ذلك بقاؤه يومين في مدينة سامرّاء، فهل يعقل لو كانت المدينة عبارة عن خرائب ان يستقر فيها يومين،بل العكس من ذلك حيث نرى ان المدينة كانت مزدهرة في بعض جهاتها مما دفعه والرحلة التي معه إلى الاستقرار فيها.

وإلى جانب الرحالة ابن جبير زار مدينة سامرّاء الرحالة الشهير ابن بطوطة[١] الذي كتب عن مدينة سامرّاء قائلاً: «ثم رحلنا فنزلنا موقعاً على شط دجلة بالقرب من حصن يسمى المعشوق، وهو مبني على الدجلة، وفي الجهة الشرقية من هذا الحصن مدينة سر من رأى، وتسمى أيضاً سامرا، ويقال لها سام راه ومعناه بالفارسية طريق سام، وراه هو الطريق، وقد استولى الخراب على هذه المدينة فلم يبقَ منها إلا القليل، وهي معتدلة الهواء رائعة الحسن على بلائها ودرس معالمها، وفيها أيضاً مشهد صاحب الزمان»[٢]. ويتضح من ذلك أن ابن بطوطة كان قد أخذ بعض المعلومات عن هذه المدينة من سلفه الذي مر بها، وهو ابن جبير وأضاف إليها قليلاً لاسيما بالنسبة إلى التسمية التي ربما أنه سمع أو سأل عن سبب تسميتها، فيأتي بذلك التفسير لتسميتها التي أعطاها عدة أسماء، وكلها قد أطلقت على المدينة في فترات تاريخية مختلفة،كما ان هنالك إشارة غير مباشرة إلى ازدهار المدينة لاسيما في الجهة التي يقع فيها مرقد الإمامين العسكريين عليهما السلام وهذا الذي لم يشر إليه ابن بطوطة صراحة وإلا بماذا نفسر قوله إن المدينة أصبحت خراباً وهنالك جزء قليل مزدهر منها، إذ أن الخراب طال قصور العباسيين الذين اتخذوها عاصمة مدة من الزمن، أما بالنسبة إلى الجزء المزدهر فهو مرقد الإمامين العسكريين عليهما السلام.

ومن الرحالة العرب المتأخرين الذين وصلوا إلى مدينة سامرّاء الرحالة المصري عبد الوهاب عزام[٣] الذي زارها

(١) ولد أبو عبدالله محمد بن إبراهيم المعروف بابن بطوطة في مدينة طنجة في المغرب عام ١٣٠٤هـ ويرجع نسبه إلى إحدى قبائل البربر، وعندما بلغ العشرين من عمره أو أكثر قليلاً ترك مدينته متوجهاً إلى مكة للحج، وبعد أن أنهى مراسيم الحج واصل رحلته إلى العراق وإيران خلال عامي ١٣٢٦-١٣٢٧، ثم عاد بعدها إلى مكة، وبعدها سافر إلى جنوب الجزيرة العربية وسواحل أفريقيا الشرقية، وعاد إلى مكة عام ١٣٤٩ ومنها سافر إلى آسيا الصغرى والبحر الأسود والهند وسيلان وماليزيا والصين ثم سافر إلى بلاد الأندلس، وبعد ذلك عاد إلى أفريقيا ووصل إلى مالي، وبعد أن أنهى رحلاته أقام في مدينة فاس في المغرب في بلاط السلطان المريني أبي عنان الذي استمع إلى روايته لأخبار رحلاته، وأمر أبو عنان كاتبه محمد بن جزي أن يسجل سرد هذه الرحلات سماعاً عن ابن بطوطة، وكانت وفاته عام ١٣٧٧، وكان خلال وصوله العراق قد زار مدينة بغداد والبصرة والنجف وواسط وكربلاء وسامرّاء والكوفة وسجل ملاحظاته عن هذه المدن ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ص١٤-٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٤٣.

(٣) عبد الوهاب عزام: ولد في مصر عام ١٨٩٤،

عام ١٩٣١ وكتب عنها بالقول: «يوم السبت، السابع والعشرين من رمضان ١٣٤٩هـ/ ١٥ شباط ١٩٣١ م كان يوماً أغر بين أيام رحلتنا، كان أغر وإن كره الساخطون الذين سموه اليوم العصيب وسموا سامرا ـ غم من رأى ـ بدل سر من رأى، أليس يوم سامرا أبقى الأيام في نفوسهم أثراً وأعظمها وقعاً». وأضاف: «سرنا إلى سامرّاء، فإذا مدينة صغيرة مسورة، هي سامرّاء الحديثة، وإذا أطلال سامرا القديمة منثورة في فضاء فسيح يعي السائر دون نهايته، وأقرب الأطلال إلى المدينة جامع المعتصم وهو واسع المساحة عظيم السور يذكر الرائي بجامع ابن طولون وكان ابن طولون بنى جامعه على نسقه، وخارج المسجد على مقربة من جداره الشمالي منارة عظيمة لها درج من الخارج يدور حولها ويظن أن منارة ابن طولون محاكاة لهذه المنارة لم تبلغ درجتها من الضخامة والإحكام». كذلك تحدث عبد الوهاب عزام عن مراقد سامرّاء قائلاً: «ذهبنا إلى مسجد سامرّاء وهو على طراز مساجد الكاظمية وكربلاء والنجف ولكنه أصغر وأقل أبهة وتحت قبته مقصورة فيها أربعة قبور للإمام علي الهادي وابنه الحسن العسكري والسيدتين سكينة وحليمة ويقال لهما هنا سكينة خاتون وحليمة خاتون وهي كلمة تركية مستعملة في العراق معناها السيدة إحداهما زوج الهادي والأخرى عمته، وخرجنا بعد زيارة المسجد معجلين عن زيارة السرداب الذي اختفى فيه الإمام محمد المهدي بن الحسن العسكري وهو الإمام الثاني عشر صاحب الزمان وكم أسفنا على أن فاتتنا زيارة السرداب ونحن بجانبه»[1].

المبحث الثاني:

سامرّاء في كتابات الرحالة الأجانب خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر:

أما بالنسبة إلى الرحالة الأجانب الذين زاروا مدينة سامرّاء خلال وصولهم إلى العراق في العصر الحديث فيبدو أن أقدم من

أرسله والده إلى الكتاتيب لحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ القراءة والكتابة، ثم التحق بالأزهر ثم بمدرسة القضاء الشرعي وبعدها بالجامعة الأهلية التي نال منها شهادة الليسانس في الآداب والفلسفة عام ١٩٢٣، تقلد عدة مناصب منها إمام في السفارة المصرية في لندن وخلال ذلك اطلع على كتابات المستشرقين عن العالم الإسلامي مما حفزه على دراسة لغات بلاد الشرق الإسلامي، والتحق بمدرسة اللغات الشرقية في لندن وحصل منها على شهادة الماجستير في الأدب الفارسي عام ١٩٢٧، ثم عاد إلى بلاده وعين في كلية الآداب وحصل بعدها على شهادة الدكتوراه ثم أصبح عميداً للكلية وبعدها عين سفيراً لبلاده في السعودية وبعد ذلك في باكستان، كان لديه العديد من المؤلفات وزار عدة بلدان عربية وإسلامية ومنها العراق عام ١٩٣١ ومر بمدينة سامرّاء. عبد الوهاب عزام، بحث منشور في الموقع الإلكتروني https://www.abjjad.com. author/2792259707

(١) عزام، رحلات عبد الوهاب عزام، ص٧٧-٨١.

مجلة آداب سامراء
العدد: الأول
السنة: الأولى
١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

زارها هو البريطاني فنشو[١] عام ١٦٥٦ أثناء سفره من الموصل إلى بغداد وبعد أن تجاوز مدينة تكريت قال: «وفي الليلة التالية سرنا ساعات طويلة حول بقايا مدينة كانت ماثلة أمامنا منذ ساعات الصباح، وعندما وصلنا إلى النهر وقد لاحظت أن بناءها كان بمحاذاة النهر ويشق المدينة شارعان فسيحان وقد أخبرني المرافقون الأرمن بأن هذا الموضع كان في سالف الزمن مثوى أمراء بغداد وكانوا يحتفظون فيه بالعربات والجياد وبقسم كبير من قواتهم التي يعتمدون عليها، وأضاف الأرمن فقالوا إن ذلك المكان يضم قبر كسرى ملك الفرس»[٢].

وعلى الرغم من أن الرحالة (فنشو) لم يشر صراحةً إلى اسم مدينة سامرّاء لكن تلك الأوصاف تدل على أنه يقصد مدينة سامرّاء، لاسيما بعد خروجه من مدينة تكريت باتجاه بغداد، ولا سيما أنه اشار إلى مسألة وهي أن المدينة كانت مقراً لأمراء بغداد، ويقصد بذلك الخلفاء العباسيين الذين استقروا بها مدة من الزمن.

وخلال القرن السابع عشر أيضاً زار مدينة سامرّاء الرحالة الفرنسي تافرنييه[٣] عام ١٦٧٦ خلال رحلته من الموصل إلى بغداد، وقد ذكر عنها قائلاً: «وفي اليوم الثاني والعشرين بعد أن بقينا في الماء ساعتين التقينا بجدول يأخذ ماءه من دجلة لسقي الأراضي هناك ويمتد إلى قرب قبالة بغداد وهناك يصب في دجلة مرة ثانية ومن هناك نزلنا إلى البر في الجهة الكلدانية لأنه كان

(١) فنشو: وهو الأب فنشو ماريا دي سانتا كاترينا دي سينا، إيطالي الجنسية انخرط في سلك الرهبانية الكرملية، أرسل في مهمة دينية عام ١٦٥٦ إلى الهند الشرقية وأثناء تلك الرحلة مر بالعراق، حيث كتب عن بعض المدن التي وصلها وبعد أن عاد إلى وطنه تسلم بعض المهمات الرسمية في الرهبنة حتى وفاته عام ١٦٧٩، وقد أكد في رحلته على أن في الشرق قوى غنية تجذب المشاعر. حسن، أهداف الرحالة الأجانب في رحلاتهم إلى المناطق الشرقية، بحث مخطوط غير منشور، ص٤.

(٢) فنشو، رحلة فنشو إلى العراق في القرن السابع عشر، ص٧٥.

(٣) وهو جان بابتيست تافرنييه ١٦٠٥-١٦٨٩، فرنسي الأصل ولد في باريس وكان والده من مشاهير الجغرافيين والنقاشين، انهمك في الرحلات في سن مبكر من حياته وهو في الخامسة من عمره، ثم توجه مع رهابين إلى الدولة العثمانية وتنقل في مدنها ودخل بعد ذلك بلاد فارس حتى وصل إلى أصفهان ثم رجع عن طريق بغداد فحلب والإسكندرونة ثم مالطا وإيطاليا حتى وصل باريس عام ١٦٣٣، وفي عام ١٦٣٨ قام برحلته الثانية التي استمرت أربع سنوات فسافر إلى حلب وفارس ثم الهند وأعقبت هاتين الرحلتين أربع رحلات حتى أنه خلال تنقلاته وصل إلى جزيرة جاوة ومر بطريق رأس الرجاء الصالح واليابان، وفي عام ١٦٦٩ منحه لويس الرابع عشر لقب نبيل، وكانت أواخر سنوات حياته غامضة؛ إذ ترك باريس إلى سويسرا عام ١٦٨٧، وفي عام ١٦٨٩ عبر إلى كوبنهاغن قاصداً بلاد فارس عن طريق روسيا لكن وافاه الأجل خلال تلك الرحلة، وألف خلال مسيرته وتنقلاته عدداً ضخماً من المؤلفات وصف فيها المناطق والمدن التي مر بها. عماد جاسم حسن، المصدر السابق، ص٤.

العدد: الأول
السنة: الأولى
١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م

برفقتنا مسلمون أحبوا أن يتبركوا بزيارة مكان يقال له سامرّاء وفيها جامع لايبعد أكثر من نصف فرسخ من النهر يؤمه كثير من المسلمين لتقديم فرض العبادة خاصة الهنود والتتر الذين يعتقدون أن أربعين نبياً من أنبيائهم مدفونون هناك، ولما علموا أننا نصارىٰ لم يسمحوا لنا بأن نطأ أرضه، وعلىٰ خمسمائة خطوة من الجامع برج مشيد بمهارة فائقة له مرقاتان من خارجه تدوران حوله دوران الحلزون، وإحدىٰ هاتين المرقاتين أعمق في بناية البرج من الأخرىٰ، وإنه مشيد بالآجر وتبدو عليه مسحة القدم، وعلىٰ نصف فرسخ منه تبدو ثلاث أبواب كبيرة كأنها أبواب قصر عظيم». وأضاف تافرنييه قائلاً: «وفي الحقيقة لا يستبعد أن في هذا الاتجاه كانت مدينة عظيمة؛ لأن علىٰ مسافة ثلاثة فراسخ علىٰ طول النهر لا يرىٰ شيء سوىٰ الخرائب»[١].

ويتضح من ذلك، أن الرحالة تافرنييه يقصد بتلك التوصيفات وصوله إلىٰ مدينة سامرّاء، وأيضاً أن تلك الرحلة التي كانت معه كان فيها عدد من الزوار الذين ربما يأتون لزيارة العتبات المقدسة، وبما أن سامرّاء تعد واحدة من المراكز الأساسية لتواجد مرقد الإمامين العسكريين فإن أغلب الزوار القادمين إلىٰ العراق لاسيما من إيران أو الهند أو غيرهما من البلدان الأخر يذهبون إلىٰ تلك المدينة، وهذا ما أشار إليه الرحالة في كلامه، فضلاً عن ذلك فإن الرحالة أشار أيضاً إلىٰ برج الملوية الذي يتوق الزوار القاصدون لتلك المدينة والرحالة الأجانب إلىٰ مشاهدته باعتباره من الرموز الآثارية للعراق.

استمر توافد الرحالة الأجانب علىٰ العراق خلال العصر الحديث وبكثرة ولأسباب متعددة، فبعضهم يجلبه حب الاستطلاع والبعض الآخر يأتي لغايات تبشيرية أو تجارية ومنهم آخرون لأغراض زيارة العتبات المقدسة في العراق ومنهم السيد عباس المكي[٢] الذي زار العراق وتنقل في أغلب مدنه من أجل زيارة العتبات المقدسة لاسيما في كربلاء والنجف والكاظمية وسامرّاء في عام (١٧١٧م/ ١١٣٠هـ)، وقد ذكر عن مدينة سامرّاء قائلاً: «مدينة سامرّاء علىٰ

(١) تافرنييه، رحلة الفرنسي تافرنييه إلىٰ العراق في القرن السابع عشر ١٦٧٦، ص٥٦.

(٢) وهو عباس بن علي الموسوي المكي المولود في مكة عام ١١١٠ هـ، كانت بداية رحلته من مكة إلىٰ العراق خاصة النجف وكربلاء لزيارة العتبات المقدسة، إذ وصل كربلاء في ٦ ربيع الأول ١١٣١هـ، ثم قام بزيارة بغداد وسامرّاء والمدائن، بعدها سافر إلىٰ أصفهان ثم عاد إلىٰ العراق عام ١١٣٢ وزار الحلة وخاصةً مشهد الشمس المشهور، ثم قام بزيارة إيران وتنقل في مدينتي أصفهان وشيراز، ثم سافر إلىٰ الحسا وبعدها إلىٰ البصرة وبندر ريق ثم إلىٰ الهند وسورات ثم عاد إلىٰ مدينة جدة وبعدها ذهب إلىٰ الطائف وصنعاء.ومما يجدر ذكره أنه أعطىٰ معلومات كثيرة عن البصرة. حسن، مرقد الإمام الحسين عليه السلام في كتابات الرحالة والمسؤولين الأجانب، ص٤.

العدد: الأول
السنة: الأولى
١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

طرف شرقي دجلة بناها المعتصم العباسي سنة إحدىٰ وعشرين ومائتين عندما ضاقت بغداد بعبيده الأتراك وأنشا جامعاً وعدة دور جليلة قيل إنه أنفق علىٰ بنائها خمسمائة ألف ألف دينار، وبنىٰ بها المنارة التي كانت من إحدىٰ العجائب، وبنىٰ فيها قصوراً علىٰ شاطئ الدجلة، وبها نهران يشقان شوارعها ويشقان الجامع الذي بها، وفي الجامع سرداب قد ثبت عند الشيعة الإمامية أن المهدي محمد بن الحسن العسكري وهو صاحب الأمر المنتظر قد غاب فيه الغيبة الكبرىٰ أيام المتوكل العباسي»[١].

ويستدل من ذلك أن السيد عباس قد تطرق إلىٰ تاريخ بناء مدينة سامرّاء وسبب اختيارها أو الانتقال إليها من بغداد، ويبدو أنه كان موفقاً في تشخيصه للسبب الرئيس لتأسيس تلك المدينة لتكون عاصمة للدولة العباسية، كذلك إشارته إلىٰ السرداب أو المكان الذي غاب فيه الإمام المهدي عجل الله تعالىٰ فرجه الشريف لكنه أخطأ في تحديد اسم الخليفة العباسي الذي كان يحكم في سامرّاء عندما غاب الإمام المهدي؛ إذ أن السيد عباس ذكر اسم الخليفة المتوكل وهذا خطأ والصحيح أنه عندما غاب الإمام كان الخليفة العباسي الحاكم هو المعتمد بن المتوكل.

ومن الرحالة الأجانب الذين زاروا مدينة سامرّاء خلال القرن الثامن عشر الدانماركي كارستن نيبور[٢] عام ١٧٦٥ والذي قال عنها: «كانت مدينة سامرّاء مدينة مهمة فقد كانت مقراً لعدد من الخلفاء، عاش فيها ثلاثة من كبار أئمة الشيعة ودفنوا فيها وتزار قبورهم كل سنة من جموع غفيرة من الفرس»[٣]. وهنا أيضاً إشارة واضحة إلىٰ مدىٰ أهمية تلك المدينة لكونها كانت عاصمة للدولة العباسية، فضلاً عن وجود مراقد الأئمة الذين فيها والذين يقصدهم نيبور هم الإمام علي الهادي والحسن العسكري والحجة المنتظر عليهم السلام.

وهنا لابد من التعليق أيضاً علىٰ ماذكره الرحالة نيبور؛ إذ أن زيارة الأئمة لم تكن سنوية بل إن اتباع أهل البيت عليهم السلام يقومون

---

(١) المكي، نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس، ج١، ص١٨٣-١٨٤.

(٢) كارستن نيبور: وهو ألماني الأصل دنماركي المولد والنشأة، وحينما قرر فريدرك الخامس ملك الدنمارك إرسال بعثة فنية للبحوث العلمية في الشرق الأدنىٰ وجنوب جزيرة العرب بصفة خاصة، دخل نيبور في خدمة الملك والتحق بهيئة البعثة، وعندما وزعت أعمال البعثة ألقيت علىٰ عاتقه متابعة الأبحاث الجغرافية، وبعد ان تحركت البعثة مكونة من أربعة أشخاص من ضمنهم نيبور عام ١٧٦٣ من الإسكندرية، توفي رفاقه ولم يبقَ ألا هو وحده الذي أكمل رحلته ووصل إلىٰ البصرة عام ١٧٦٥ وفيها بدأ رحلته التي وصل فيها إلىٰ بغداد ومر بأغلب المدن والمناطق الواقعة علىٰ نهري دجلة والفرات، كارستن نيبور، مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة إلىٰ الحلة سنة ١٧٦٥، ص٥٤.

(٣) كارستن نيبور، رحلة نيبور الكاملة إلىٰ العراق، ص٣٤٠.

العدد: الأول
السنة: الأولى
١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

بزيارة مراقد الأئمة على مدار العام، لكن من المرجح أن الزيارة التي يقصدها نيبور هي التي تحصل أيام وفيات الأئمة التي يكثر فيها عدد الزوار، والنقطة الأخرى التي يمكن التعليق عليها أيضاً هي أن الزوار لم يكونوا من الفرس فقط بل إن هنالك أعداداً كبيرة من الزائرين من العراق لاسيما من الشيعة ولكن الرحالة نيبور قد أخطأ في التعبير بذكر كلمة فرس أو أنه كان يقصد فيها الشيعة على اعتبار أن إيران في وقتها كانت دولة شيعية، فجاء بذلك التعبير لإيصال تلك الفكرة.

ومن الأوصاف الأخر التي ذكرها نيبور عن مدينة سامرّاء قوله: «وفي سامرّاء برج ضخم مرتفع جداً يشبه برج الرصد في كوبنهاغن وليست له سلالم بل طريق لولبي متسرح»[١]. وهنا يقصد الملوية التي بنيت أيام انتقال الخلافة العباسية إلى سامرّاء. فضلاً عن ذلك فإنه أضاف قائلاً: «الواقع أن سامرّاء لم تكن وحدها مشهورة بمبانيها الأثرية القائمة بل هناك عدد كبير من المباني الأثرية القائمة على طول شاطئ دجلة بين الموصل وبغداد، على أن هذه الآثار قد تعود جميعها إلى الزمن الإسلامي لذلك فلايحتاج المسافر أدنى عناء لزيارتها والتعرف عليها»[٢].

وبعد نيبور حل الرحالة الإيطالي سيستيني في مدينة سامرّاء أثناء رحلته من إسطنبول إلى البصرة عام ١٧٨١ حيث قال: «وبعد مسافة أخرى رأينا أبنية متهدمة يطلق عليها اسم بغداد القديمة وقيل إن الخلفاء العباسيين اتخذوها مكاناً للسكنى - ويقصد بذلك سامرّاء- وكان في النهر عدد من الجزر وكان له تعرجات عديدة نزل الفلاحون إلى البر وعادوا بعد قليل حاملين زقاً مليئاً بعنب لذيذ». وأضاف: «رأينا حطام بعض اعمدة جسر قديم على دجلة،وعندما ترتفع مياه النهر فتغطيها فيصبح المرور هناك أخطر على الأكلاك»[٣]. وتكلم تافرنيه عن شلال قوي في ذلك المكان بحيث يجبر المسافرين على إفراغ الكلك من الأحمال والسير نحو ثلاثة أميال راكبين الثيران أو الخيل ثم يعودون إلى الكلك»، وهنا يمكن أن يفهم مما قاله الرحالة الإيطالي أن هنالك تسميات تطلق على مدينة سامرّاء والتي منها بغداد القديمة وهذه إشارة واضحة إلى الربط في موضوع اختيارها بوصفها عاصمةً للدولة العباسية بدلاً عن بغداد الأمر الذي ربما لايفهمه الرحالة ولكنهم يسمعون بذلك من أبناء المناطق أو من الأشخاص الذين يرافقونهم في رحلاتهم والذين يكونون على اطلاع ومعرفة بتلك المناطق، كذلك إشارته إلى الصعوبات التي تواجههم أثناء سيرهم

(١) كارستن، نيبور، ص٣٤٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سيستيني، رحلته من أسطنبول إلى البصرة سنة ١٧٨١، ص٤٣-٤٤.

العدد: الأول
السنة: الأولى
١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

في نهر دجلة والآلات التي يستخدمونها، فضلاً عن ذلك فإنه كان لديه اطلاع بما كتبه الرحالة السابقون له الذين مروا بهذه المنطقة مبيناً ما ذكره الفرنسي تافرنييه، وهذا يعني أنهم يحاولون التعرف على المناطق التي ينوون زيارتها قبل وصولهم إليها لتكون لديهم فكرة واضحة عن تلك المناطق. بالإضافة إلى ذلك قال سيستيني: «لقد رأينا خلال رحلتنا حماماً معشعشاً على الشاطئ ودجاج البجع واللقالق والعصفور الدوري بكثرة، وكانت الخنازير البرية تزعجنا، لكننا لم نشاهد أسوداً رغم أنها ليست نادرة، كذلك توجد الخيول والحمير صغيرة الحجم لكنها قوية والماعز والأغنام والجاموس بكثرة والجمال والثيران، فهذه ثروة العرب المخيمين على ضفاف دجلة»[١].

ويستنتج من ذلك، أن هذه المدينة كانت تتمتع بقوة اقتصادية كبيرة وذلك بتوفر الزراعة وأيضاً الحيوانات المختلفة التي ذكرها الرحالة والذي أكد على أن أصحاب هذه المنطقة يمتلكون ثروة هائلة إذا ما قورنت بمناطق أخر، ومن ذلك يمكن القول إن تلك المناطق كانت تعيش الاكتفاء الذاتي بتواجد مصادر المعيشة الأساسية.

(١) ومفردها كلك، وهو وسيلة للنقل النهري في العراق القديم وأيضاً في العصر الحديث، وهو مكونٌ من رمث يصنع من أقوى أنواع القصب أو من الخشب القوي ويربط بجلود الماعز التي تجعله قادراً على حمل وزن ثقيل، ويتم من خلاله نقل البضائع والأشخاص، وعند الوصول إلى المكان المحدد المقصود لرحلته يتم تفكيكه وبيع أخشابه. أسامة عدنان يحيى، وسائل النقل النهري في العراق القديم، آشور بانيبال للثقافة، على الموقع: http://ashur.hiablog.com/post/26255520-

المبحث الثالث:

سامرّاء في كتابات الرحالة الأجانب خلال القرن التاسع عشر

وفي بداية القرن التاسع عشر وصل إلى سامرّاء الرحالة الهندي أبو طالب خان[٢] الذي قام برحلته من أجل زيارة العتبات المقدسة في العراق، وبعد زيارته لمدينة الكاظمية في بغداد اتجه نحو مدينة سامرّاء التي وصلها عام ١٨٠٣ وقال عنها: «ولما

(٢) هو أبو طالب بن محمد خان، وأصله تركي لكن والده هاجر إلى الهند أولاً ثم إلى البنغال ثم توفي في مقصود آباد عام ١٧٦٨، ولد أبو طالب في لكنو عام ١٧٥١ والبعض يقول في ١٧٥٣، وقد هاجر مع عائلته إلى بانتا ثم إلى مقصود آباد وكان عمره آنذاك ١٤ عاماً، وعمل في وظيفة استيفاء الضرائب مدة من الزمن ثم هاجر هو وعائلته إلى كلكتا عام ١٧٨٧، وكان أبو طالب بليغاً في اللغة الفارسية وآدابها إذ ألف كتاباً في المختارات الشعرية الفارسية، سافر أبو طالب من كلكتا إلى أوربا فزار إنكلترا وفرنسا والدولة العثمانية ثم رجع إلى الهند عام ١٨٠٣، وخلال تواجده في الدولة العثمانية ادعى أنه من سلالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وهو علوي، ودلت الأخبار في رحلته على أنه كان شيعياً، وقد تنقل في مدن الدولة العثمانية وجاء إلى العراق عام ١٨٠٣، وزار المدن المقدسة النجف وكربلاء والكاظمية، وأعطى معلومات كثيرة عن المدن التي مر فيها خلال رحلته. عماد جاسم حسن، مرقد الإمام الحسين عليه السلام في كتابات الرحالة والمسؤولين الأجانب، ص١٣٢.

كنا على أربعة فراسخ[١] من سامرّاء زرنا مشاهد الإمامين العاشر والحادي عشر وقد خلبني جمالها». وأضاف في وصفه لتلك المدينة: «وإلى يمين سامرّاء يقوم تل يسميه سكان ذلك الصقع تل المخالي، وتل بالعربية يعني قلعة، والمخالي تعني نوعاً صغيراً من الأكياس يسع أربع ليغرات ـ الليغر ٥٠٠ غرام ـ أو خمساً من الحبوب تشبه التي تستعمل في لندن لمؤنة الأفواه الخاصة بخيل الكراء، ويحكى في هذه القرية حكاية جد خاصة، وهي: أن المعتصم أحد خلفاء بني العباس أراد أن يظهر للحسن العسكري الإمام الحادي عشر صورة واضحة كل الوضوح لسلطانه، فاستعرض في هذا السهل فلما انتهى الاستعراض أمر كل فارس من الفرسان أن يملأ مخلاته تراباً ويفرغها في هذا الموضع ففعلوا، فكان هذا التل من كثرة مخاليهم لكثرة عددهم في وقت قليل، ولما رأى الامام هذه الأعجوبة قال للمعتصم: لو تأذن لي أن أريك جيشي فأذن له، فأشار إذ ذاك إلى موضع معين وفيه رأى الخليفة في الهواء جيشاً كثيفاً من الرجال والخيل يتقدم نحوه كأنه يهجم عليه والجنود مدرعون وللخيل منظر رهيب، فجمد هذا المشهد في عيني الخليفة من الرهب ورجا من الإمام ان يعفو عن زهوه وتهوره فعفا عنه بكثير من اللطف ومن ذلك الحادث سمي الحسن بالعسكري ومعنى ذلك رئيس العسكر»[٢].

ويظهر هنا واحد من الحوادث التي حدثت وهي من المعجزات لأهل البيت عليهم السلام والتي سمع عنها أبو طالب خان أثناء مروره بمدينة سامرّاء، حيث كانت تلك القصة أو الحادثة متداولة على مر الأجيال.

وبالعودة إلى الرحلة، ووصف أبي طالب خان إلى مدينة سامرّاء حيث قال عنها: «وبالليل دخلنا سامرّاء، وهي تسمى أيضاً سر من رأى، أي متعة الناظر، وهي على مسافة ثمانين ميلاً من بغداد، وقيل: إن هاتين المدينتين بغداد وسامرّاء كانتا في أيام عزة الخلفاء جداً متقاربتين بحيث يستطيع ديك من الديكة أن يجوس خلالهما كلتيهما قافزاً من دار إلى دار بسهولة كما انه يرى على الطريق بقايا مبانٍ»[٣]. ويستنتج من ذلك أن المسافة ما بين المدينتين كانت قد شغلت بالسكن وازدهرت كثيراً وذلك لكون المدينتان مقر الحكومة والخلافة، الأمر الذي دفع الرحالة إلى أن يطلق ذلك الوصف على مشاهدته لكثرة المباني القديمة الممتدة على الطريق بين المدينتين، الأمر الذي يدل على ما ذهبنا إليه.

فضلاً عن ذلك، فقد تحدث أبو طالب

(١) الفرسخ: من مقاييس المسافة قديمًا وأصل الكلمة فارسية معربة وتجمع أغلب المراجع على أن الفرسخ يعادل مابين أربعة وستة كيلو مترات في النظام الدولي الحالي. على الموقع https://www.ar.m.wikipedia.org

(٢) أبو طالب خان، رحلة أبي طالب خان إلى العراق وأوربا سنة ١٢١٣هـ-١٧٩٩، ص٣٧٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٧٩.

مجلة آداب سامراء
العدد: الأول
السنة: الأولى
١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

خان عن موقعها قائلاً: «وسامرّاء قائمة على الضفة الغربية من دجلة فإذا قصد القاصد إليها وجد الطريق يخط خطاً مستقيماً على التقريب يسير فيه القاصد إن لم يقطره الخوف من قطاع الطريق من العرب إلى أن يدور عدة دورات تفادياً للقائهم». وأضاف: «في هذه المدينة أيضاً مشهد علي الهادي الإمام العاشر وقد شيده أحمد خان الدنبلي[١]، وهذه القبة تفوق قبب كربلاء، ولم يكن كمعمار تلك القبب في الرشاقة والأناقة فليست مذهبة وداخل المشهد يحوي صندوقاً من الخشب أي تابوتاً يغطي قبور أربعة أئمة هم: علي الهادي، والحسن العسكري، ونرجس خاتون أم المهدي الإمام الثاني عشر وابنة لعلي الهادي الإمام العاشر»[٢]. وهنا يلاحظ أن الرحالة أعطى مقارنة بين ما موجود في سامرّاء وكربلاء من مراقد الأئمة؛ وذلك لكونه قد زار كربلاء قبل ذلك ومن ثم أصبحت لديه فكرة واضحة عن تلك المراقد، ويبدو أن الرحالة التبست عليه بعض المعلومات التي قدمها بشكل غير صحيح لاسيما فيما يخص وجود أربعة قبور للأئمة وهذا غير صحيح إذ ان ماموجود في سامرّاء هما قبران للإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام، أما بالنسبة إلى أم الإمام المهدي وابنة الإمام محمد الجواد فهما ليستا من الأئمة بل إنهما من آل البيت، والأئمة هم اثنا عشر إماماً لاغير، وربما الرحالة قد اخطأ في التعبير من أجل إيصال الفكرة ولم يكن له قصد في ذلك، ولا يعقل أن أبا طالب خان لم تكن لديه معرفة بعدد الأئمة المعصومين عليهم السلام.

ومن الأوصاف الأخر التي ذكرها أبو طالب خان للأماكن المقدسة في مدينة سامرّاء قوله: «وعلى مسافة رمية سهم[٣] من المشهد ترى المغارة التي اختفى فيها الإمام المهدي الذي ينتظر عدة أتقياء من الشيعة عودته وهذه المغارة لم تتغير قط وإنما شيد عليها لصيانتها»[٤].

ومن الرحالة الأجانب الذين زاروا العراق عام ١٨٠٧ ووصلوا إلى مدينة سامرّاء الفرنسي دوبريه[٥] الذي قال عنها

(١) أحمد خان الدنبلي: هو أحد أمراء خوي في أذربيجان قام بعمارة المرقد عام ١٧٨٠ عندما أوكل الميرزا محمد رفيع السلماس الإشراف على عمليات الصيانة والتعمير والبناء. على الموقع.
www.https://marefa.org

(٢) المصدر نفسه، ص٣٨٠.

(٣) رمية سهم: وحدة قياس المسافة قديمًا، ويطلق عليها أيضاً غلوة، وهي مقياس يوناني الأصل يبلغ ١٨٥ متراً، والغلوة عند العرب رمية سهم أبعد مايقدر عليه (٣٠٠-٤٠٠ ذراع). على الموقع
www.http://ar.m.wikipedia.org

(٤) المصدر نفسه.

(٥) دوبريه: لاتوجد معلومات عن تاريخ ولادته، وهو فرنسي الجنسية كان مولعاً باللغات الشرقية وهي مصدر قوته في رحلاته إذ كان يستطيع التحدث مع السكان المحليين، ويبدو أن نظرته في رحلته كانت تجارية؛ لأنه أعطى معلومات وتفاصيل كثيرة عن الأوزان والمكاييل والمواد والسلع المتوفرة في كل

«رغم أن المذهب السائد في الامبراطورية العثمانية هو المذهب السني لكن ثلاثة أرباع سكان العراق يمارسون ديانتهم حسب المذهب الشيعي وأتباع هذا المذهب لا يستطيعون أن يشيدوا لهم أماكن عبادة أو أن يمارسوا طقوسهم علانية» ويستنتج من ذلك مدى العنف والاضطهاد الذي كانت تمارسه الدولة العثمانية والتمييز الطائفي الواضح الذي نقله لنا الرحالة بهذه الصورة، وأيضاً تأكيده على أن الشيعة يمثلون ثلاثة أرباع السكان في العراق، وهذه إشارة واضحة على أنهم يمثلون الأغلبية في هذا البلد لكن الاستبداد العثماني لم يسمح لهم بممارسة طقوسهم وشعائرهم بشكل علني؛ لأن المذهب الرسمي للدوله العثمانية كان هو المذهب السني، الأمر الذي يؤكد على تجذر المسائل الطائفية في تعامل الدولة العثمانية مع سكانها؛ وإلى جانب ذلك أضاف دوبريه خلال حديثه عن سامرّاء: «إن أضرحة الأئمة الأربعة في سامرّاء تحظى باحترام بالغ من أبناء هذه الملة وتجذب أعداداً كبيرة من الفرس، ويعتبر قدومهم هنا للزيارة كالحج فالقليلون منهم يذهبون إلى مكة لكن معظمهم يأتون إلى بغداد»[1].

الواقع أن الرحالة لم يكتفوا بوصف المدن التي يمرون فيها بل إنهم غالباً ما كانوا يصورون أوضاع المسافرين في تلك الرحلة كما إنهم يتنبهون لكل صغيرة وكبيرة خلال مرافقتهم للرحلات، ومن ذلك على سبيل المثال مانقله الرحالة الروسي لوي جاك روسو الذي جاء إلى العراق عام ١٨٠٨ وتنقل في عدة مدن؛ إذ تحدث عن التنظيم الذي كان موجوداً في القافلة التي تحمل بينها الكثير من الزوار القادمين لزيارة العتبات المقدسة، فقال: «تسير القافلة بأكملها تحت قيادة شيخ واحد هو المسؤول عن إدارتها العامة، وهو يصدر التعليمات إلى الحمالين والسائسين السائرين خلف الأحمال، ويرجع إلى هؤلاء حق اختيار شيخ القافلة، معظم هؤلاء الرجال ومن ضمنهم شيخ القافلة يمتطون الخيل ويسيرون عادة في المقدمة من أجل استكشاف الأرض بالمراقبة من المرتفعات كي يكون على استعداد لأي هجوم غير متوقع، يسير بعدهم البيرقدار أي حامل الراية وهو بعدهم مباشرة حاملاً البيرق مطوياً على كتفه لأن العلم لايرفرف على السارية إلا في الحالات الحرجة وذلك من أجل تنبيه حملة البنادق ليستعدوا للقتال

بلد والطرق المهمة وقيمة النقود، كذلك تطرق إلى الضرائب والمكوس، وما يثبت اهتمامه بالمعلومات التجارية قوله بأن هدف رحلته خدمة الجغرافية والتجارة، بدأ رحلته من القسطنطينية عام ١٨٠٧ ثم إلى ديار بكر وماردين ونصيبين والموصل وبقية المدن العراقية، وتوجه بعد ذلك إلى بلاد فارس. عماد جاسم حسن، المصدر السابق، ص١٣٣.

(١) دوبريه، رحلة دوبريه إلى العراق ١٨٠٧-١٨٠٩، ص١٣٣.

العدد: الأول
السنة: الأولى
١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

والدفاع عن القافلة، ويتكون العلم من لونين هما الأحمر والأخضر ويوضع كأمانة عند أكبر الرجال سناً فيكون هذا الشخص محط احترام الناس كما يجلب له بعض الفائدة المادية». كما إن روسو أضاف: «للقافلة جاويش ومؤذن وقهوجي، والجاويش هو الذي يقوم بإعلان القرارات التي يصدرها شيخ القافلة، أما المؤذن فهو المرشد الديني للقافلة ويقوم برفع الأذان للصلاة ويتدخل أحياناً لتهدئة النفوس عندما تنشب بينهم مشاحنات، أما القهوجي فإنه يعد القهوة ويوزعها في محطات التوقف، وهؤلاء الثلاثة يعملون لقاء إكراميات تقدمها لهم شخصيات القافلة المرموقين الذين يتعهدون منذ انطلاق الرحلة بتغطية مثل تلك النفقات»[١].

وإلى جانب روسو وصل العراق الرحالة البريطاني جون ما كدونالد كينير عام ١٨١٣ الذي مر بمدينة سامرّاء في أثناء طريقه من الموصل إلى بغداد فوصفها بالقول: «وهي بلدة تحتوي على ألفي نسمة، وكانت سامرّاء –وهي سامير القديمة– محل الإقامة المفضل لعدد من خلفاء بني العباس ولاتزال أطلال مدينتهم هناك تشغل فسحة كبيرة من الأرض، وأهمها قبر ومشهد الإمام المهدي الذي دفن في سامرّاء، وهنا بناء جميل من الطابوق تعلوه قبتان ومنارتان مزينتان بالكاشي الملون الذي يتباهى به العرب ويبدو بمنظر جذاب حينما تتساقط أشعة الشمس عليه، وهناك على مسافة غير بعيدة عنه برج مخروطي الشكل يعلو علواً عظيماً ويبدو بمنظر مناسب وتلف حول هذا البرج مرقاة حلزونية شيدت بمهارة بحيث يمكن أن تصعد منها إلى القمة الخيل والبغال عند اللزوم»[٢]. وهنا لا بد من التعليق على ما ذكره الرحالة البريطاني لاسيما في ذكره بخصوص أن الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف مدفون في تلك المدينة، فهنا قد أخطأ الرحالة في وصفه، إذ أن الامام لا يزال حياً ولكنه غائبٌ عن الأنظار ولايوجد له قبر في سامرّاء، وإنما يوجد سرداب الغيبة ولكن الرحالة ربما توهم في وصف تلك الحقيقة أو ربما علم بهذه المعلومة من آخرين. وتابع كينير في وصفه لمدينة سامرّاء قائلاً: «وعلى بعد عشرة أميال ونصف من شمال شرق البلدة الحديثة وعلى الفرع الأيسر من دجلة تقوم خرائب قصر الخليفة الذي يبدو أنه كان واسعاً جداً وهو مبني من الطابوق والطين، ولكن برغم ما كان عليه من أهمية وازدهار لا يحتوي على ما يستحق المشاهدة، وتشاهد أيضاً أقساماً كبيرة من سورة البلدة أيضاً وهي تمتد إلى مسافة غير يسيرة في البادية المحيطة بها، ومن

(١) لوي جاك روسو، رحلة من بغداد إلى حلب سنة ١٨٠٨، ص٥٩-٦٠.

(٢) John Macdonald Kinnier، Journey through Asia minor،Armenia&Koordistan in the years 1813-1814،London،1818، p.

الصعب أن يتصور المرء كيف أن بقعة مثل هذه يمكن أن تنتدب موقعاً لعاصمة مهمة يقيم بها أمير ذو سطوة ومنعة، فإن أرضها الممتدة إلى مد البصر قاحلة وهي يباب بلقع ليس فيه زرع ولا شجر يمكن أن يريح ولو قليلاً من سطوع الشمس وحر الرمال ويمتلئ الجو من فوقها بغيوم من الغبار تولدها الريح الشديدة التي تضيف بعضها شيئاً غير يسير إلى وحشة المكان»[١].

ويستنتج من ذلك المقارنة التي أحدثها الرحالة البريطاني التي نستطيع أن نصفها بين الحق والباطل؛ إذ أشار إلى ذلك من حيث لا يشعر ومن خلال الأوصاف التي نقلها عن مدينة سامرّاء، وبعد أن تحدث عن مرقدي الإمامين العسكرين وجمال المكان هناك، انتقل ليعطي صورة سيئة عن المدينة وبخاصة في القسم الذي كان يسكنه الخلفاء الذين مارسوا الظلم والجور على الإمامين العسكريين، وهذا مايؤكد نهاية الطغاة، فمهما ملكوا وحكموا فإنهم لا يعمرون إلى الأبد، بل إن قصورهم تحولت إلى خراب ومنازلهم وحدائقهم تحولت إلى صحراء قاحلة أدت إلى استغراب الرحالة في كيفية اختيارهم لتلك المدينة وجعلها عاصمة لهم لما رآه من الخراب الذي حل بها على عكس مرقد الإمامين الذي ظل يشع نوراً في تلك المنطقة.

(١) john, Ibid.

فضلاً عن ذلك، فقد زار مدينة سامرّاء المنشئ البغدادي[٢] عام ١٨٢٠ الذي ذكر عنها قائلاً: «من الدور إليها ثمانية فراسخ، طيبة الهواء، وفيها نحو ألفي بيت، ومن المزارات فيها علي النقي والإمام حسن العسكري عليهما السلام ومحل غيبة الإمام محمد المهدي». وأيضاً تحدث المنشئ البغدادي عن زوار هذا المرقد الشريف «وفي كل سنة يبلغ زوار الشيعة من العرب والعجم نحو الثلاثين ألفاً يأتون إلى هذه المشاهد للزيارة». كما انه قال عنها: «ويقال سامرّاء -العسكر- وطولها وعرضها ثلاثة فراسخ تقع على ساحل دجلة، وهي من بناء الخلفاء العباسيين، وأكثر بيوتها إلى الآن -وقتذاك- ظاهرة، ولها مسجد كبير من بناء الخلفاء والمنارة فيها يقال لها الملوية لاتزال قائمة ويصعد عليها من الخارج بالتواء بخلاف سائر المنائر فإن طريق الصعود إليها من سلّم في الداخل»وعن منتجاتها تحدث المنشئ قائلاً: «وفي سامرّاء البطيخ الأحمر كثير

(٢) وهو السيد محمد بن أحمد الحسيني المنشئ البغدادي، من موظفي المقيمية البريطانية في بغداد وبقي فيها حتى عام ١٨٢٠، وعرف بالسيد محمد آغا الفارسي، وهو إيراني إلا أنه دعا نفسه في أول رحلته إلى الاطلاع على بقايا الآثار القديمة والعجائب القديمة وأن يتجول في تلك الربوع، وتحدث عن مدن العراق كالموصل وبغداد والسليمانية وكركوك والكوفة والسماوة والزبير والقرنة والفلوجة وسامرّاء.عماد جاسم حسن، أهداف الرحالة الأجانب في رحلاتهم إلى المناطق الشرقية، ص٥.

مجلة آداب سامراء
العدد: الأول
السنة: الأولى
١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

الجودة وليس فيها ولا في الدور وتكريت بساتين من جهة أرض تلك الأنحاء كلسية -جص-»[١].

ومما تجدر الإشارة إليه، أن المقيم البريطاني في بغداد ريج[٢] (١٨٠٨-١٨٢١) قد رافق المنشئ البغدادي في رحلته من بغداد إلى شمال العراق، وقد ذكر ريج في وصف سامرّاء قائلاً: «كانت سامرّاء -التي تبعد بمسافة عشرين ميلاً- موقعاً آخر من مواقع الاستراحة، وهي تعود في تاريخها إلى أيام الخلفاء الأوائل ولم يكن فيها سوى تلول من الزبل تدل على الموقع، كما إن سامرّاء لها شيء من الأهمية ويقدسها الشيعة تقديساً كبيراً لأنها قد دفن فيها ثلاثة من أئمتهم: أي الإمام علي النقي والحسن العسكري وأعظم الجميع المهدي صاحب الزمان الذي غاب هنا ولايزال يعيش في إحدى الآبار على ما يزعم ليعود إلى الظهور من جديد في آخر الزمان، وكان قد بني مؤخراً جامع جديد وبقربه حمام وخان لإيواء الزوار على نفقة أحد الإيرانيين المتدينين»[٣]. فضلًا عن ذلك، فقد أضاف ريج في وصفه لمدينة سامرّاء بالقول«وكانت ترى فيما حول سامرّاء خرائب ممتدة وبقايا أبنية كبيرة في جميع الجهات وأهمها أو أكثرها استثارة لحب الاستطلاع كان البرج المدور الملوي على شاكلة الحلزون المتكون من ستة طوابق الذي قال أحدهم عنه إنه كان منارة للجامع، وقال آخرون إنه كان برجاً للمراقبة»[٤]. واستناداً إلى ما ذكره ريج يمكن فهم التالي:

أشار إلى أنها كانت عاصمة للدولة العباسية لكنها بمرور الوقت أصبحت عبارة عن خرائب وتلال وأطلال عفا عليها الزمن بعدما كانت مصدر القوة والسلطة.

رغم الخراب الذي حل بمدينة سامرّاء

(١) محمد بن أحمد الحسيني، رحلة المنشئ البغدادي، ص١٣٨.

(٢) كلوديوس جيمس ريج، ولد في عام ١٧٨٧ في فرنسا ثم انتقل مع والديه إلى إنكلترا، وتعلم عدة لغات، كانت لديه رغبة في دراسة العلوم الشرقية واللغة العربية، وكذلك تعلم اللغة الفارسية والتركية، ونتيجة لإتقانه لتلك اللغات تم تعينه طالباً حربياً في الخدمة العسكرية لدى شركة الهند الشرقية الإنكليزية عام ١٨٠٣، ونتيجة لمؤهلاته التي اتصف بها تم تعيينه بوظيفة كاتب تحريرات في مؤسسة بومباي، بعد ذلك تم إيفاده إلى مصر مدة من الزمن، ثم انتقل إلى إستانبول وبعدها إلى إزمير ثم جاء إلى منطقة الخليج، وبعد ذلك عاد إلى بومباي عام ١٨٠٧، وفي العام التالي تم تعيينه مقيماً للشركة البريطانية في بغداد، قام بعدة سفرات في المدن العراقية وكتب عنها الكثير من المؤلفات، وبعد خروجه من مقيمية بغداد ذهب إلى مدينة شيراز الإيرانية عام ١٨٢١ التي تزامن مع وصوله إليها ان تفشى فيها مرض الهيضة الذي أصيب به وتوفي هناك. كلوديوس جيمس ريج، رحلة ريج المقيم البريطاني في العراق عام ١٨٢٠ إلى بغداد وكردستان وإيران، ص ٥-١٦.

(٣) نقلًا عن: الخليلي، موسوعة العتبات المقدسة، ج ١٢، قسم سامرّاء، ص٢٩٦.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٩٧.

العدد: الأول
السنة: الأولى
١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

لكن وجود مرقد الإمامين العسكريين وكذلك مكان غيبة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف جعلها قبلة للزوار الشيعة من مختلف مناطق العالم الأمر الذي دفع البعض إلى بناء أماكن لغرض استقرار الزوار فيها.

لم يغفل ريج عن بناء الملوية التي كانت شاخصة في مدينة سامرّاء وأصبحت أحد معالمها الرئيسة.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن تلك الرحلات التي كانت تأتي إلى العراق كانت تتعرض إلى عدة عقبات، وهذا ما أشار إليه الرحالة البريطاني فليكس جونز (Fleix Jones) الذي زار العراق منتصف القرن التاسع عشر وتحدث عن العقبات التي يتعرض لها الزوار ولاسيما الزوار القادمون من إيران، إذ أنه أشار إلى أن تلك العقبات كانت تضعها الحكومة العثمانية وذكر قائلاً: «إن عمل دوائر الكمرك في بغداد في انحدار لعدة سنوات بداعي أسباب عديدة، والسبب الرئيس لذلك هو الطرق الشمالية المفتوحة لدخول المواد الروسية والإنكليزية المصنعة لإيران وآسيا الصغرى عن طريق سوريا والبحر الأسود ومنذ عهد قريب، كذلك العقبات وعمليات الابتزاز التي يعاني منها الزوار الإيرانيون من الموظفين الأتراك عندما يزورون العتبات المقدسة التي تقع بالقرب من بغداد ـ وهنا إشارة واضحة إلى مدينة سامرّاء ـ كل ذلك يدفع بالسلطات إلى اللجوء إلى قانون منع مرور الرحلات الإيرانية»[1]. بالإضافة إلى ذلك، فإنه قام برحلة نهرية أطلق عليها في كتاباته (رحلة بالباخرة إلى شمال بغداد في نيسان ١٨٤٦) وقد وصل إلى مدينة سامرّاء وكتب عنها بالقول: «تقع بلدة سامرّاء الحديثة على جرف عالٍ ممتد فيكون الضفة اليسرى من دجلة، وهي الآن محاطة بسور متين شيّد على حساب شيعة الهنود المتنفذين، وحينما زرتها عام ١٨٤٣ كان هذا السور قد بدئ بتشييده حديثاً، وكانت البلدة قبلة مكشوفة فكابدت كثيرا من طلبات البدو الجائرة، فقد كانوا يخيمون في خارجها ويهددون بغزوها إذا لم تنفذ مطاليبهم المتكررة، على أنها أصبحت اليوم آمنة بفضل السور الجديد ولايحصل فيها مثل ما كان يحصل، لكن بناء السور حصل فيه شيء غير يسير من قصر النظر لعدم تمديده إلى ما يقرب من حافة الجرف المطلة على النهر نفسه؛ لأن البدو يستطيعون الآن أن يأتوا في كل وقت ويخربوا القناة التي تأخذ الماء إلى البلدة وبقطع هذا الشيء الحيوي يستطيعون إرغامها على الرضوخ لمطالبهم». وأضاف: «وهي على كل حال بلدة حقيرة بوجه عام، لكن أهميتها تعزى بالدرجة الأولى إلى الضريحين الجميلين الموجودين فيها، وتعلو هذين الضريحين

(١) جونز، بغداد في منتصف القرن التاسع عشر، ص، ١٣٠.

مجلة آداب سامراء
العدد: الأول
السنة: الأولى
١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

قبتان شيدت كبراهما فوق قبر الإمام الحسن العسكري وقد أجريت بعض الترميمات فيها مؤخراً وأعتقد أنها كانت قد كسيت من قبل بالذهب على غرار القباب المقامة في الكاظمية وكربلاء والنجف، لكنها تبدو الآن بيضاء تماماً؛ لأن المبالغ المتيسرة حالياً عند المعنيين بها غير كافية للعمل على إرجاع رونقها السابق إليها، أما القبة الصغيرة أو قبة الإمام المهدي فهي قبة نظيفة جديدة قد زينت بالكاشي الجميل الموشى بأوراد صفراء وبيضاء فوق أرضية خضراء تميل إلى الزرقة»[١].

وإلى جانب تلك المعلومات تحدث جونز عن الإمام المهدي-عج- قائلاً: «وكان الإمام المهدي آخر الأئمة الذين يقدسهم الشيعة، ويقال إنه اختفى في هذه البقعة ويدل كهف كبير أقيم فوقه هذا البناء على الموقع الذي غاب فيه الإمام، ويعتقد أنه سيعود إلى الظهور فيه مستقبلاً ولذلك يقدسه المسلمون كثيراً ولاسيما الشيعة منهم، ويقصد هذا المكان كل سنة من الزوار من أنحاء إيران كلها، فقد قيل لي أن معدل زوار هذه البقعة المقدسة يبلغ حوالي عشرة آلاف كل سنة، لكنني ميال إلى الاعتقاد بأن هذا العدد يعتبر أقل من الواقع بكثير ولا تجبى أية ضريبة هنا عليهم لكن أصحاب الخانات والبيوت التي يقيمون فيها يدفعون إلى الحكومة قرشين اثنين عن كل زائر»[٢].

وهنا لابد من التوضيح بأن الرحالة جونز قد أخطأ في قوله بأن من يقصد المكان الذي اختفى فيه الإمام المهدي للزيارة هم الزوار الإيرانيون، بل إن الزوار لم يكونوا من إيران فقط؛ إذ أن العراقيين يقومون بزيارة سامرّاء وأيضاً هنالك زوار شيعة يأتون من البلدان الأخر لاسيما البلاد الآسيوية كالهند مثلاً، أو من مناطق الخليج كالبحرين أو الأحساء والقطيف، وبالتالي فإن الزوار الشيعة يأتون من البلدان كلها لزيارة هذا المكان المقدس وليس من إيران فقط.

الواقع أن كل من يصل إلى سامرّاء لا يستطيع أن يترك الأثر الآخر المهم الموجود فيها دون الإشارة إليه، وهو الملوية التي تحدث عنها جونز بالقول: «ويوجد على مايقارب من نصف ميل من شمال البلدة برج غريب حلزوني الشكل يسمى بالملوية ويقدر علوه بمائة وثلاثة وستين قدماً ومن الممكن للناظر أن يرى من قمته منظراً جميلاً لسامرّاء القديمة، إذ تنتشر في كل جهة من الجهات اكوام من كسر الطابوق والزجاج والخزف، بالإضافة إلى التخطيط الواضح للكثير من الأبنية القديمة الذي يمكن أن يشاهد. وقد شيدت الملوية وبقايا البناء المستطيل ـ الجامع والمدرسة ـ القريب منها بالطابوق الفاخر الذي لا يمكن أن يضاهي

(١) الخليلي، المصدر السابق، ص٢٩٩-٣٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠٠.

بناءه النظيف البناء الذي يحصل اليوم، وإلى الشمال الغربي للملوية على بعد ميلين ونصف تقريباً توجد بقايا قصر الخليفة أو قصر المعتصم ثامن الخلفاء العباسيين الذي ترك بغداد وبنى سامرّاء خوفاً من طبيعة البغداديين الثائرة وليس فيه اليوم قائم غير مدخله وتشغل الأطلال المحيطة به مساحة كبيرة من الأرض توجد تحتها غرف مقببة». ومن الملاحظات الأخر التي دونها جونز عن مدينة سامرّاء قوله: «وإلى الشمال الغربي من قصر الخليفة وفوق تل متموج صح الحدود اليمنى لوادي دجلة يوجد طلل آخر من نفس النمط البنائي على مايبدو، ولايزال قسم من حصون هذا الطلل قائماً، وهي إما دائرة أو مضلعة، ومبنية بإتقان من أفخر الطابوق، وهذه أطلال قصر العاشق وبعض التلول العالية الكائنة في منتصف المسافة بين قصر الخليفة والعاشق في وادي النهر نفسه تدل على وجود آثار قديمة فيها ربما تكون بابلية الأصل على ما أعتقد، على أن العرب يطلقون على هذه التلال المعشوق، ويقال إن جسراً كان يصل في قديم الزمان بينها وبين العاشق، وعلى بعد أربعة أميال من شمال سامرّاء يقوم تل عالٍ في الفضاء يسمى تل العليج، وتروى عن هذا التل قصص عدة تفيد بأنه كان قد أقامه ملك قديم أمر جنوده بأن يأتي كل منهم بملء كيس العليق من التراب إلى هذا المكان، فتكون هذا التل الكبير، وهو يشبه تمام الشبه التلول التي تشاهد في سورية ووادي الشهرزور بالقرب من السليمانية»[١].

أما بالنسبة إلى الرحالة البريطاني جون أشر (Jone Asher)[٢] الذي زار مدينة سامرّاء عام ١٨٦٤ فقد وصفها قائلاً: «سامرّاء بلدة غير صغيرة فيها عدد كبير من السكان، وفيها برج - يقصد بذلك الملوية - يقدر ارتفاعه بمئة قدم، وإن آثار العباسيين فيها مغطاة بأكوام كبيرة من التراب والأنقاض، كما ان الشيعة يقدسون مرقد الإماميين العسكريين وغيبة الإمام الحجة صاحب الزمان فيها»[٣].

وإلى جانب ذلك وصل العراق الرحالة البريطاني لجان (Legan) عام ١٨٦٦ وتنقل بين مدنه وقدم أوصافاً لمشاهداته، حيث أنه عندما وصل إلى مدينة سامرّاء قال: «جذب نظري فيما بعد بناء غريب الشكل وهو برج مشيد بالطابوق حلزوني الشكل، يقع بالقرب من مدينة تدعى سوميرا أو سامرا وهذا اسم قديم بقي إلى اليوم –

(١) الخليلي، المصدر السابق، ص٣٠٣.

(٢) جون أشر: وهو عضو الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية قام في صيف عام ١٨٦٤ برحلة طويلة إلى موقع الآثار الإيرانية المعروفة باسم برسبولس أو (تخت جمشيد) القريبة من مدينة شيراز مروراً بإستانبول ثم ديار بكر وزاخو وحتى وصوله إلى الموصل بعدها وصل إلى بغداد ثم كربلاء. جون أشر، مشاهدات جون أشر في العراق، ص١٢١-١٢٢.

(٣) المصدر نفسه، ص١٤٠.

مجلة آداب سامراء
العدد: الأول
السنة: الأولى
١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

وقتذاك -، لقد كان هذا البرج مرصداً على أيام الخلفاء، وقد يكون أقدم عهداً منهم، وقد أقيم لهذه الغاية منذ القدم، إذ يجب أن لايبرح عن ذهننا بأننا نتوغل الآن في بلاد علم الفلك الأصيل»[١].

ويبدو أن الرحالة لجان أعجب كثيراً بما لاحظه إلى درجة أنه أخذ يقارن ذلك ويصفه ويمتدحه، إذ قال: «تتوالى في الذهن ذكريات العلم والتاريخ، فهذه الأرض المستوية القاحلة عن يساري كانت يوماً مسرحاً لأنبل المشاهد التي ورثناها عن الأقدمين، هنا انتهت حياة شاب روماني كان له من العمر إحدى وثلاثون سنة، وله علاقة بتاريخنا الفرنسين أعني بذلك القيصر يوليان – من اباطرة روما ٢٦١ إلى ٢٦٢، وهو من أقرباء قسطنطين تربى على النصرانية لكنه عاد إلى الوثنية، عمل على ترسيخ أقدامها؛ لذا عرف بالمجاهد، حارب الفرس ومات مقتولاً وهو يردد: غلبتني أيها الناصري - الذي نالته عبر الأجيال أقلام الكثيرين؛ لأنه حاول إعادة القديم إلى قدمه بالرغم من كونه لم يؤمن بذلك القديم»[٢].

وفي العام ذاته، وصل العراق الرحالة الهولندي لكيلاما نيجهولت (Lycklama Nijholt) حيث بقي في بغداد مدة من الزمن ثم غادرها عام ١٨٦٧ قاصداً مدينة سامرّاء التي قال عنها: «سامرّاء مبنية على تلال كثيرة الحصى تشرف على نهر دجلة، يحيط بها سور شيد قبل عهد قصير بأمر أميرة هندية لحماية البلدة من غزوات البدو، وتضم سامرّاء مدافن أئمة الشيعة الثلاثة علي النقي وابنه الحسن العسكري وحفيده المعروف بصاحب الزمان الذي يقال إن أعداءه حاولوا الفتك به، فلما رفعوا الخنجر لقطع رأسه انشقت الأرض وغيبته فإذا بمهاجميه الذاهلين أول المؤمنين بقداسته، وإن شاه إيران قد أعلن قبل عدة أشهر عزمه على إهداء صفائح ذهب لتزيين القبة فكان الناس ينتظرون وصول هذه الهدية الثمينة خلال أيام معدودة». وقد ذكر الرحالة أوصافاً أخر للمدينة إذ قال: «وعرض دجلة هنا يبلغ نحو ٣٠٠ متراً وعلى شاطئيه تقوم خرائب المدينة القديمة التي كانت بلدة كبيرة لاتقاس بها القرية الحاضرة التي تضم سوقاً صغيرة تتألف من بضعة دكاكين يباع فيها التبغ والرز والتمور والتفاح الأخضر، ويحيط السور بالبلدة عدا جهة النهر وله فتحات عليا وثلاثة أبواب، ونفوس سامرّاء تقرب من ٤٠٠ عائلة، وقبة صاحب الزمان المغشاة بالقاشاني جميلة، أما قبة العسكري فمتداعية، وللمسجدين فناءان فسيحان لم يسمح لصاحبنا بالدخول إليهما»، كما تحدث الرحالة عن الملوية التي شبهها ببرج بيزا إذ قال عنها: «إن مدارج الملوية تتصاعد بيسر

(١) لجان، رحلة لجان إلى العراق ١٨٦٦، ص٥٩.

(٢) لجان، رحلة لجان، ص٥٩.

وسهولة حتى يمكن للخيل والبغال أن ترقاها إلى أعلى حاملة الخلفاء إلى الشرفة التي تطل على الضواحي، وكانت توضع بالغرفة المقامة بأعلى الملوية، ولها فتحات إلى جهات الأفق، مصابيح تسرج في كل مساء لإنارة سبيل القوافل القادمة ليلاً، وترتفع الملوية في ظهر مسجد الجمعة العظيم الذي لم يبقَ منه سوى حيطانه الخارجية»[١].

ومن الرحالة الأجانب الآخرين الذين زاروا مدينة سامرّاء الفرنسي هنري بنديه (Henry Bondier) عام ١٨٨٥ وقد ذكر قائلاً: «وفي ٢٢ تشرين الأول ١٨٨٥ نمر صباحاً أمام سامرّاء وجامعها الشهير، لقد كانت سامرّاء أيام الخلفاء مدينة كبيرة مزدهرة بل كانت المقر المفضل لدى الخليفة العباسي الثامن المعتصم بالله الذي دفعته طباع أهالي بغداد القلقة إلى تغيير مركز الحكم لكنها ليست سوى ضاحية ذات شأن صغير». وأضاف بنديه بالقول: «لقد شيدوا برج سامرّاء والملوية كما كان لهم أن يتخيلوا برج بابل أي بدرب دائري يتصاعد حلزونياً حول المركز، أما الجامع فمكان زيارة للشيعة إذ دفن فيه آخر إمام من سلالة علي وفيه يتوارى الإمام الثاني عشر المهدي الذي سيظهر يوماً كالمسيح»[٢].

فضلاً عن ذلك، فقد أعطى بنديه أوصافاً وملاحظات أخر عن المدينة من خلال مشاهداته إذ قال: «نلتقي بعد ذلك بقافلة فرس يعبرون النهر». وهنا إشارة واضحة إلى الزوار القادمين من إيران لزيارة العتبات المقدسة، بالإضافة إلى ذلك أشار بالقول: «بعض البيوت على الساحل هي منازل نوتية حطوا في هذا المكان حيث النهر يشق الطريق وذلك لكي ينقلوا المسافرين، زوارقهم غريبة الشكل كأنها أعشاش كبيرة دائرية الشكل مصنوعة من خيزران محبوك ومكسوة بالقار يسمونها القفة، إنه الأنموذج المستخدم في المنطقة كلها، إذ أن فن الملاحة يبدو لم يتقدم منذ العهد الآشوري»[٣].

(١) نقلًا عن الخليلي، المصدر السابق، ص٣٠٦.

(٢) هنري بنديه، رحلة إلى كردستان في بلاد مابين النهرين سنة ١٨٨٥، ص١١١-١١٢.

(٣) المصدر نفسه.

مجلة آداب سامراء
العدد: الأول
السنة: الأولى
١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

الخاتمة:

اتضح من خلال البحث التالي:

قيام عدد من الرحالة بمختلف الجنسيات بزيارة مدينة سامرّاء للاطلاع على معالمها التاريخية والأثرية تدفعهم إلى ذلك أسباب وأغراض متعددة وفي فترات تاريخية مختلفة.

أظهرت كتابات الرحالة الأجانب معلومات جغرافية واسعة عن تلك المدينة من ناحية موقعها وجغرافيتها وطبيعة أرضها وأيضاً مميزاتها الاقتصادية بتوافر المياه لكونها تقع على نهر دجلة، فضلاً عن إشارتهم إلى وجود مختلف المحاصيل الزراعية وأيضاً اشتهارها بوجود ثروة حيوانية، كل ذلك ساعد على اتساعها وتزايد عدد سكانها.

اتضح من خلال كتابات الرحالة أن مدينة سامرّاء امتازت بصبغة دينية ارتبطت بشكل كبير بوجود مرقد الإمامين العسكريين، وكذلك وجود مقام غيبة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، ومن ثم فإن وجود هذه الرموز فيها دفع الزوار الشيعة إلى التوافد على هذه المدينة من مختلف مناطق العالم الإسلامي، إذ أن الموالين لأهل البيت عليهم السلام يقصدون تلك المراقد للتبرك والزيارة والدعاء، فتراهم يقطعون المسافات البعيدة ويتحملون المشاق والظروف الصعبة في سبيل تحقيق تلك الغاية وهذا ما أشار إليه وأكد عليه الرحالة في كتاباتهم، إذ أنهم أكدوا على مشاهدتهم لأفواج الزائرين الذين يأتون إلى تلك المناطق وهم يتحملون عناء السفر في ظل الظروف القاسية وعدم توفر وسائل النقل.

تبين من خلال البحث أن بعض الرحالة الأجانب قد أعطى نوعاً من المقارنة بين مراقد الأئمة الموجودة في سامرّاء ومراقد الأئمة في المدن الأخر في كربلاء والنجف والكاظمية، وأقام بعضهم مقارنة بين مراقد الأئمة وقصور الخلافة وأعطى ذلك انطباعاً عن أن صراع الحق والباطل لابد من أن ينتهي ولا يبقى ماثلاً إلا الحق، وهناك إشارة واضحة إلى تحول تلك القصور إلى أطلال وأتربة وتلال بينما ظلت مراقد الأئمة شامخة مزدهرة بل أنها أصبحت قبلة للأحرار ومناراً يستضاء به يقصده الزائرون من مختلف أنحاء العالم.

حملت كتابات الرحالة معلومات أشارت إلى الأوضاع السياسية في تلك المدينة في مراحل تاريخية معينة منذ تأسيسها، إذ أشارت إلى انتقال مقر الخلافة العباسية واختيارها عاصمةً نتيجة لأسباب ذكرها الرحالة كل حسب وجهة نظره.

المصادر والمراجع:

أولاً: الكتب العربية والمعربة:

١. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد المنعم، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٧.

٢. ابن جبير، محمد، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، د.ت.

٣. الحسيني، محمد بن أحمد، رحلة المنشئ البغدادي، ترجمة عباس العزاوي، ٢٠٠٨، الوراق.

٤. الخليلي، جعفر موسوعة العتبات المقدسة، ج١٢، قسم سامرّاء، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ٢، ١٩٨٧.

٥. المكي، عباس ابن علي، نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس، ج١، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٩٦٧.

٦. أبو طالب خان، رحلة أبي طالب خان إلى العراق وأوربا سنة ١٢١٣هـ، ١٧٩٩، ترجمة مصطفى جواد، المجمع العلمي العراقي، بغداد.

٧. أشر، جون، مشاهدات جون أشر في العراق، ترجمة جعفر الخياط في رحالة أوربيون في العراق، بيروت، ٢٠٠٧.

٨. بنديه، هنري، رحلة إلى كردستان في بلاد مابين النهرين سنة ١٨٨٥، ترجمة يوسف حلبي، أربيل، ٢٠٠١.

٩. تافرنييه، رحلة الفرنسي تافرنييه إلى العراق في القرن السابع عشر ١٦٧٦، ترجمة كوركيس عواد وبشير فرنسيس، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١، ٢٠٠٦.

١٠. جونز، جيمس فليكس، بغداد في منتصف القرن التاسع عشر، ترجمة عبدالهادي فنجان، دار ومكتبة عدنان، بغداد، ٢٠١٤.

١١. دوبريه، رحلة دوبريه إلى العراق ١٨٠٧-١٨٠٩، ترجمة بطرس حداد، طبعة دار الوراق للنشر.

١٢. روسو، لوي جاك، رحلة من بغداد إلى حلب سنة ١٨٠٨م، ترجمة بطرس حداد، بغداد، ٢٠٠٤.

١٣. سيستيني، رحلته من إسطنبول إلى البصرة سنة ١٧٨١م، ترجمة بطرس حداد، المركز العلمي العراقي، بغداد، د.ت.

١٤. عزام، عبد الوهاب، رحلات عبد الوهاب عزام، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٥١.

١٥. فنشو، رحلة فنشو إلى العراق في القرن السابع عشر، ترجمة بطرس حداد، مجلة المورد، العدد٣، ١٩٧٦.

١٦. كارستن، نيبهور، مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة إلى الحلة سنة ١٧٦٥، ترجمة سعاد هادي العمري، مطبعة دار

المعرفة، بغداد، ١٩٥٥.

١٧. كارستن، نيبور، رحلة نيبور الكاملة إلى العراق، ترجمة سعاد هادي العمري وآخرين، الوراق، ٢٠١٢، بيروت.

١٨. كلوديوس، جيمس ريج، رحلة ريج المقيم البريطاني في العراق عام ١٨٢٠ إلى بغداد كردستان إيران، ترجمة بهاء الدين نوري، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٨.

ثانياً: الكتب الأجنبية:

John Macdonald Kinnier ، Journey through Asia minor، Armenia & Koordistan in the years 1813-1814، p، London،1818.

ثالثاً: البحوث:

١. حسن، عماد جاسم، أهداف الرحالة الأجانب في رحلاتهم إلى المناطق الشرقية، بحث مخطوط غير منشور.

٢. حسن، عماد جاسم، مرقد الإمام الحسين عليه السلام في كتابات الرحالة والمسؤولين الأجانب، مجلة تراث كربلاء، العتبة العباسية المقدسة، المجلد ٣، العدد ٢.

٣. لجان، رحلة لجان إلى العراق ١٨٦٦، ترجمة بطرس حداد، مجلة المورد، وزارة الثقافة والإعلام، العدد ٣، المجلد ١٢، ١٩٨٣.

رابعاً: المواقع الالكترونية:

أسامة عدنان يحيى، وسائل النقل النهري في العراق القديم، آشور بانيبال للثقافة، على الموقع:

http://ashur.hiablog.com/post/262555
https://archiv.org
https://www.abjjad.com.author/2792259707
www.https://ar.m.wikipedia.org
www.https://marefa.org
www.http://ar.m.wikipedia.org